الباب الثاني

ذكر النساء في القرآن الكريم

تمهيد

بعد أن استعرضنا حال المرأة عند الشعوب القديمة : من الهنود إلىٰ الصينيين إلىٰ اليابانيين . . . إلىٰ المرأة في العصر الجاهلي . . . لا بد من أن نتابع المسيرة لهذا العرض ، خاصةً أنه حدث انقلاب علىٰ وجه الأرض ، حيث هبط الأمين جبريل بكتابٍ من عند الله تعالىٰ يعلن أنه آخر الرسالات ، وأن رسول الله محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء ، وأن هذه الشريعة هي الشريعة التي ستدوم وتبقىٰ إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها .

لذلك لا بدّ من استعراضٍ سريع لوضع المرأة في كتاب الله تعالىٰ وسنة حبيبه المصطفىٰ ﷺ ، ليتبين لنا الفرق الواضح بين وضعها في الإسلام وبين ما كانت عليه في الأديان والمعتقدات السابقة .

* * *

في سورة البقرة

آيات كثيرة تتحدث عن المرأة ، من ذلك قول الله تعالىٰ : ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ [البقرة : ٣٥ـ٣٦] .

إنه خطاب من الله تعالىٰ إلىٰ أبي البشر آدم ـ عليه السلام ـ بأن يتخذ الجنة مأوىً له ولزوجه حواء ، وأن يعيشا عيشة هانئةً لا عناء فيها ، ثم

وضع لهما شرطاً هو أن لا تقربا هذه الشجرة ـ وهي شجرة مجهولة بالنسبة لنا ـ إلا أنها شجرة ما ، أراد الله من خلالها امتحان آدم وحواء ، فماذا حدث ؟

وسوس لهما الشيطان وأغراهما بالأكل منها ووعدهما أنه سيكون لهما من الناصحين ، بل وحلف لهما بذلك ، وفي لحظة ضعف صدَّقت حواء إبليس فأكلت من تلك الشجرة فلم تصب بأذىٰ ، عندها أقنعت آدم عليه السلام بأن يأكل من الشجرة فأكل ، فكانت العقوبة إخراجهما من الجنة ، من جوار الله ، ثم الأمر بأن يهبطا إلىٰ الأرض لتعمر الحياة ويتكاثر البشر[1] .

ثم يقول الله تعالىٰ في السورة نفسها :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [البقرة : ١٧٨] .

إنه تشريع القصاص الذي وصفه الله تعالىٰ بقوله :

﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [البقرة : ١٧٩] .

واختلف الفقهاء في موضوع هل يُقتل الرجل إذا قتل امرأة ؟

فذهب مالك وأحمد وسفيان الثوري إلىٰ أن الذكر لا يُقتل بالأنثىٰ إلا إذا سلم أولياء المرأة الزيادة علىٰ ديتها من دية الرجل ، لكن الجمهور ـ أبو حنيفة والشافعي ـ قالوا : يُقتل الرجل بالمرأة ولا زيادة . . .

ثم يُلفت البيان الإلهي النظر إلىٰ مسألة أهم وهي العفو ، وهذا من باب التيسير والتخفيف .

---

(١) للتوسع يراجع التفسير الكبير للرازي : ٥/ ٤٠ .

بعدها ينهي الله تعالىٰ هذه الآية بقوله : ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي أن الله سبحانه عفا عما كان في الجاهلية لمن أسلم الآن ، وقد بين له وحُدَّ له الحدود ، فإن تجاوزها بعد بيانها فله عذاب أليم ، بالقتل في الدنيا وبالعذاب في الآخرة[1] .

ـ ثم بعد ذلك يحدثنا البيان الإلهي عن العلاقة بين الرجال والنساء ـ الأزواج ـ أثناء الصوم فيقول :

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ ﴾ [البقرة : ١٨٧] .

ويعلق الإمام فخر الدين الرازي (ت ٦٠٤ هـ) علىٰ هذه الآية بقوله :

ذهب جمهور المفسرين إلىٰ أنه في أول شريعة محمد ﷺ ، كان الصائم إذا أفطر حلّ له الأكل والشرب والوقاع بشرط أن لا ينام وأن لا يصلي العشاء الآخرة ، فإذا فعل أحدهما حرّم عليه هذه الأشياء ، ثم إن الله تعالىٰ نسخ ذلك بهذه الآية .

ثم يقول : وأما قوله تعالىٰ : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولىٰ : قد ذكرنا في تشبيه الزوجين باللباس وجوهاً ، أحدها : أنه لما كان الرجل والمرأة يعتنقان ، فيضمّ كل واحد منهما جسمه إلىٰ جسم صاحبه حتىٰ يصير كل واحد منهما لصاحبه كالثوب الذي

---

(١) للتوسع يراجع أحكام القرآن لابن العربي : ١/ ٨٩ـ١٠٠ .

يلبسه ، سمي كل واحد منهما لباسٌ ، قال الربيع : هن فراش لكم وأنتم لحاف لهن ، وقال ابن زيد ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ يريد أن كل واحد منهما يستر صاحبه عند الجماع عن أبصار الناس .

وثانيها : إنما سمي الزوجان لباساً ليستر كل واحد منهما صاحبه عما لا يحل ، كما جاء في الخبر « من تزوج أحرز ثلثي دينه » .

وثالثهما : أنه تعالىٰ جعلها لباساً للرجل ، من حيث إنه يخصها بنفسه ، كما يخص لباسه بنفسه ، ويراها أهلاً لأن يلاقي كل بدنه كل بدنها كما يعمله في اللباس .

ورابعها : يحتمل أن يكون المراد ستره بها عن جميع المفاسد التي تقع في البيت ، لو لم تكن المرأة حاضرة ، كما يستتر الإنسان بلباسه عن الحرّ والبرد وكثير من المضار .

وخامسها : ذكر الأصم أن المراد كل واحد منهما مهما كان كاللباس الساتر للآخر في ذلك المحظور الذي يفعلونه ، وهذا ضعيف لأنه تعالىٰ أورد هذا الوصف علىٰ طريق الإنعام علينا ، فكيف يحمل علىٰ التستر بهن في المحظور ؟[1] .

إنه من التيسير من الله والتخفيف ، لذلك سُمح بالمباشرة بين الرجال والنساء ـ الأزواج ـ والأكل والشرب . . . جميع ساعات الليل ـ من أذان المغرب حتىٰ أذان الفجر ـ ثم يأتي الأدب القرآني ليلفت الانتباه إلىٰ قضية رائعة وهي عدم المباشرة بين الأزواج في المساجد ، ثم يختم الآية بقوله : ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ أي لا تتجاوزوها ، كما في قوله تعالىٰ ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ .

---

(١) للتوسع يراجع التفسير الكبير : ٥/ ٨٨ـ٩٩ .

ـ ثم يذكر الله تعالىٰ العلاقة بين المشركين والمسلمين فيما يختص بالزواج فيقول :

﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ ﴾

[البقرة : ٢٢١] .

إنه توجيه إلهي إلىٰ المؤمنين بأن لا يتزوجوا من المشركات والوثنيات ، وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ولا من الكتابيات ، وعلىٰ المؤمنين أن لا ينخذعوا بالجمال والحسن ، لأن القضية والميزان هي الإيمان والتقىٰ ، لذلك فالأفضل للمؤمن أن يتزوج من مؤمنة ولو كانت أمَة غير جميلة ، من أن يتزوج من مشركة حرة جميلة . . .

كذلك ، يا أيها المؤمنون لا تزوجوا مشركاً من مؤمنة حتىٰ يعلن إسلامه ، ولا يغرنكم المال والجاه والجمال و . . . لأن العبد المؤمن خير عند الله وأفضل للمؤمنة من المشرك الحر الغني الجميل . ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ﴾ ، وأما السبب في هذا النهي فيقول الإمام القرطبي في ذلك : وأجمعت الأمة علىٰ أن المشرك لا يطأ المؤمنة بوجهٍ ، لما في ذلك من الغضاضة علىٰ الإسلام . . .[1] .

ثم تتحدث الآيات القرآنية حول موضوع الحيض . . . فيقول الله تعالىٰ في ذلك :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا

---

(١) للتوسع يراجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ٣/ ٧٠ـ٨٤ .

﴿ نَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢ـ٢٢٣] .

كان أهل الجاهلية يعتزلون النساء في فترة المحيض : لا يجلسون معهن في إناءٍ واحد ، ولا يؤاكلهن من طعامهن ، ولا ينامون معهن في بيت واحد ، ولا يأكلون معهن في فراش واحد ، وكأن المرأة في هذه الفترة نجسة نجاسة مغلّظة ! !

لكن القرآن الكريم أمر باعتزال النساء وقت المحيض ، فقط من ناحية الجماع في الفرج ، وما عدا ذلك فمباح للرجل أن يأكل معها ، وينام معها ، و . . . فإذا انتهت مدة حيضها رُفع الحرج والتحريم . .

ثم بعد ذلك يحدد القرآن ـ بدقة وتفصيل ـ حدود العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة بما يدل علىٰ طهارة الإسلام ونقائه . . . ولهذا الأمر تفصيلات كثيرة[1] .

ـ ثم تتحدث السورة عن مواضيع نسائية مهمة مثل : الإيلاء وهو أن يحلف الرجل أن لا يطأ امرأته أكثر من أربعة أشهر . . . ، ومثل عدة المطلقات ، ومثل عدة الطلاق الذي تثبت فيه العدة للأزواج وهو مرتان ـ طلاق رجعي ـ ، ومثل كيفية ترجيع المرأة بعد طلاقها ثلاثاً وذلك بأن تتزوج رجلاً آخر ، ومثل مدة الرضاعة ، ومثل عدة المتوفي عنها زوجها ، ومثل طلاق المرأة التي لم يمسّها الرجل ، وكلها أحكام هامة تهتم بموضوع النساء ، ولا مجال للتوسع في ذلك لكني سأشير فقط إلىٰ أماكن تفسيرها من التفاسير المعتمدة ، يقول الله تعالىٰ :

---

(١) للتوسع في ذلك يراجع جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري : ٢/ ٣٨٠ـ٣٩٩ .

﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ
عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا
يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ
بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن
تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ
عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾
وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ
ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ
ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ
بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا
تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ
لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ
لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا
وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا
فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ
عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ
يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا
جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ
أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۬ ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟
عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ

فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۖ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1] .

[البقرة : ٢٢٦ـ٢٣٧] .

ـ ثم يأتي الحديث القرآني عن شهادة المرأة ، وذلك في قوله تعالىٰ في أطول آية قرآنية ، وهي آية الدّين المشهورة ، وفيها :

﴿ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ . . . ﴾

[البقرة : ٢٨٢] .

وعلّق القاضي أبو بكر ابن العربي (ت ٥٤٣ هـ) علىٰ ذلك بقوله :

(رتّب الله الشهادات بحكمته في الحقوق المالية والبدنية والحدود ، فجعلها في كل فنّ شهيدين ، إلا في الزنا فإنه قرن ثبوتها بأربعة شهداء ، تأكيداً في الستر .

والمقصود بقوله تعالىٰ ﴿ مِن رِّجَالِكُمْ ﴾ أي البالغون من ذكوركم المسلمون ، لأن الطفل لا يُقال له رجل ، وكذا المرأة لا يُقال لها رجل . . . .) واشترط البيان الإلهي في حال عدم وجود رجلين أن تكون امرأتان مع رجل ، وعلل ذلك بقوله ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ أي تذكر الذاكرة الغافلة . . . والحكمة من ذلك أن الرجل

---

(١) لبيان تفسير هذه الآيات يراجع : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ٣/ ١٠٦ـ٢٠٧ ، والتفسير الكبير للرازي : ٦/ ٦٩ـ١٢٤ ، وأحكام القرآن لابن العربي : ١/ ٢٤٢ـ٢٩٧ ، وتفسير الطبري : ٢/ ٤١٧ـ٥٥٣ . .

يقضي غالبية أوقاته في السوق والعمل و. . . أساليب المعيشة ، لذا يكون الأمر عليه سهل ، لكن المرأة تقضي غالبية وقتها في البيت : مع الأولاد ومشاكلهم ، مع تهيئة الطعام. . وترتيب المنزل و. . . لذلك تكون أقرب إلىٰ النسيان لتلك الأمور المادية ونحوه أكثر من الرجل ـ وسبحان من قسّم ذلك ووزعه بإتقان ودقة ـ[1] .

* * *

وفي سورة آل عمران

حديث طويل عن سيدنا عيسىٰ ـ عليه السلام ـ ويبدأ الحديث عن كيفية نذر جدته (حنة) بأن تجعل الولد الذي تحمله في بطنها خادماً للكنيسة ، لكن إرادة الله شاءت أن يكون الولد أنثىٰ ـ وهي مريم ـ ، ثم يتحدث البيان الإلهي عن كيفية كفل سيدنا زكريا ـ عليه السلام ـ لمريم ، وعن كيفية عبادتها وإخلاصها لله تعالىٰ ، وعن كيفية دخول سيدنا زكريا عليها ليجد عندها العجب العُجاب ، فاكهة الصيف في الشتاء ، وفاكهة الشتاء في الصيف ، وفي ذلك يقول تعالىٰ :

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٣٥ـ٣٧] .

---

(١) للتوسع في ذلك يراجع أحكام القرآن : ١/ ٣٣٢ـ٣٤٠ .

ولتبيان تفسير هذه الآيات وشرحها يراجع التفاسير التالية[1] .

ثم ينقلنا البيان الإلهي إلىٰ قضية اصطفاء مريم وأمرها بالعبادة ، من ركوع وسجود وقنوت بين يدي الله ، فيقول تعالىٰ :

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾

[آل عمران : ٤٢ـ٤٣] .

ثم ينقلنا البيان الإلهي إلىٰ القضية الكبرىٰ ، وهي قضية حمل مريم من دون أن يقربها رجل ، وهذا أمر غيبي لا دخل للمخلوقات فيه ، لذلك نراها تستغرب ذلك ، ويُنكره عليها قومها و . . . لكنها إرادة الله وقدرته ﴿كن فيكون﴾ .

وفي ذلك يقول الله تعالىٰ : ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

[آل عمران : ٤٥ـ٤٧] .

ـ وفي السورة نفسها يحدثنا البيان الإلهي عن قصة سيدنا زكريا ـ عليه السلام ـ وكيف كان شيخاً كبيراً تجاوز ـ علىٰ بعض الروايات ـ المائة والعشرين سنة ، وكانت زوجته قد تجاوزت التسعين سنة وكانت عاقراً لا تلد ، لكن النبي زكريا كان يكثر الدعاء أن يرزقه الله بولد ، وذات يوم وهو في صلاته أتته الملائكة بالبشارة بأن الله تعالىٰ أراد له أن ينجب

---

(١) تفسير القرطبي : ٤/ ٦٩ـ٩٨ ، وتفسير الطبري : ٣/ ٢٣٤ـ٢٨١ ، وأحكام القرآن لابن العربي : ١/ ٣٥٢ـ٣٥٩ ، وتفسير الرازي : ٨/ ٢١ـ٤٧ .

ولداً ، لكن كيف وهو الكبير ، وزوجه الكبيرة العاقر ؟! إنها إرادة الله وقدرته[1] ، وفي ذلك يقول تعالىٰ :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً ۚ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ [آل عمران : ٣٨ـ٤١] .

ـ وفي أواخر السورة يضع أحكم الحاكمين وأعدل العادلين ميزان العدل الذي يساوي من خلاله بين الرجل والمرأة في الثواب والعمل فيقول تعالىٰ :

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۖ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ [آل عمران : ١٩٥] .

ويعلّق الإمام القرطبي علىٰ هذه الآية بقوله :

روىٰ الحاكم أبو عبد الله في صحيحه عن أم سلمة أنها قالت : يا رسول الله ألا أسمع الله ذَكَرَ النساء في الهجرة بشيء ؟

فأنزل الله تعالىٰ : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ وأخرجه الترمذي . . ، وأما قوله تعالىٰ ﴿ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ﴾ أي دينكم واحد ، وقيل : بعضكم من بعض في الثواب والأحكام

---

(١) يراجع تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) : ٢/ ٣٣ـ٣٥ .

والنصرة وشبه ذلك ، وقال الضّحاك : رجالكم شكل نسائكم في الطاعة ، ونساؤكم شكل رجالكم في الطاعة ، نظيرها قوله عز وجل : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة : ٧١] .

ويقال : فلان منّي ، أي علىٰ مذهبي وخلقي .

وأما قوله تعالىٰ : ﴿فالذين هاجروا﴾ أي هجروا أوطانهم وساروا إلىٰ المدينة ، في طاعة الله عز وجل ، و﴿وقاتلوا وقتلوا﴾ أي وقاتلوا أعدائي وقتلوا في سبيلي . ﴿لأكفرن عنهم سيئاتهم﴾ أي لأسترنّها عليهم في الآخرة ، فلا أوبخهم بها ولا أعاقبهم عليها . . . ولأثيبنهم ثواباً و﴿الله عنده حسن الثواب﴾ أي حسن الجزاء ، وهو ما يرجع علىٰ العامل من جراء عمله . . .[1] .

* * *

وفي سورة النساء

نجد في افتتاحية السورة ذكر النساء إلىٰ جانب الرجال ، وذلك في قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١] .

(توحي ـ هذه الآية ـ إلىٰ أن البشرية التي صدرت من إرادة واحدة ، تتصل في رحم واحدة ، وتلتقي في وشيجة واحدة ، وتنبثق من أصل واحد ، وتنتسب إلىٰ نسب واحد ، ولو تذكر الناس هذه الحقيقة لتضاءلت

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٤/ ٣٢٧ـ٣٢٨ ، وفي تفسير الطبري : ٤/ ٢١٥ـ٢١٧ ، وفي تفسير ابن كثير : ٢/ ١٨٢ـ١٨٣ .

في حسهم كل الفروق الطائلة ، التي نشأت في حياتهم متأخرة ، ففرقت بين أبناء النفس الواحدة ، ومزقت وشائج الرحم الواحدة ، وكلها ملابسات طارئة ما كان يجوز أن تطغىٰ علىٰ مودة الرحم وحقها في الرعاية ، وصلة النفس وحقها في المودة ، وصلة الربوبية وحقها في التقوىٰ .

واستقرار هذه الحقيقة كان كفيلاً لذلك باستبعاد الاستعباد الطبقي السائد في وثنية الهند والصراع الطبقي ، الذي تسيل فيه الدماء أنهاراً ، في الدول الشيوعية ، والذي ما تزال الجاهلية الحديثة تعتبره قاعدة فلسفتها المذهبية ، ونقطة انطلاقها إلىٰ تحطيم الطبقات كلها ، لتسويد طبقة واحدة ، ناسية النفس الواحدة التي انبثق منها الجميع ، والربوبية الواحدة التي يرجع إليها الجميع!

والحقيقة الأخرىٰ التي تتضمنها الإشارة إلىٰ أنه من النفس الواحدة ﴿خلق منها زوجها﴾ كانت كفيلة ـ لو أدركتها البشرية ـ أن توفر عليها تلك الأخطاء الأليمة ، التي تردت فيها ، وهي تتصور في المرأة شتىٰ التصورات السخيفة ، وتراها منبع الرجس والنجاسة ، وأصل الشر والبلاء. . وهي من النفس الأولىٰ فطرة وطبعاً خلقها الله لتكون لها زوجاً ، وليبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ، فلا فارق في الأصل والفطرة ، إنما الفارق في الاستعداد والوظيفة .

ولقد خبطت البشرية في هذا التيه طويلاً ، فجرّدن المرأة من كل خصائص الإنسانية وحقوقها فترة من الزمان ، تحت تأثير تصور سخيف لا أصل له ، فلما أن أرادت معالجة هذا الخطأ الشنيع اشتطت في الضفة الأخرىٰ ، وأطلقت للمرأة العنان ، ونسيت أنها إنسان خلقت لإنسان ، ونفس خلقت لنفس ، وشطر مكمل لشطر ، وأنهما ليسا فردين متماثلين ، وإنما هما زوجان متكاملان .

والمنهج الرباني القويم يرد البشرية إلىٰ هذه الحقيقة البسيطة بعد ذلك الضلال البعيد . كذلك توحي الآية بأن قاعدة الحياة البشرية هي الأسرة ، فقد شاء الله أن تبدأ هذه النبتة في الأرض بأسرة واحدة ، فتخلق ابتداءً نفساً واحدة ، وخلق منها زوجها ، فكانت أسرة من زوجين ﴿وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً﴾ ولو شاء لخلق ـ في أول النشأة ـ رجالاً كثيراً ونساءً ، وزوجهم ، فكانوا أسراً شتىٰ من أول الطريق ، لا رحم بينهما من مبدأ الأمر ، ولا رابطة تربطها إلا صدورها عن إرادة الخالق الواحد ، وهي الوشيجة الأولىٰ ، ولكنه ـ سبحانه ـ شاء لأمر علمه ولحكمة يقصدها ، أن يضاعف الوشائج ، فيبدأ بها من وشيجة الربوبية ـ وهي أصل وأول الوشائج ـ ثم يثني بوشيجة الرحم ، فتقوم الأسرة الأولىٰ من ذكر وأنثىٰ ـ هما من نفس واحدة وفطرة واحدة ـ ومن هذه الأسرة الأولىٰ يبث رجالاً كثيراً ونساء ، كلهم يرجعون ابتداءً إلىٰ وشيجة الربوبية ، ثم يرجعون بعدها إلىٰ وشيجة الأسرة ، التي يقوم عليها نظام المجتمع الإنساني بعد قيامه علىٰ أساس العقيدة)[1] .

ـ وبعد قليل يأتي الحديث في السورة عن تعدد الزوجات والعدل بين النساء ، وعن المهر ، فيقول الله تعالىٰ :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾ [النساء : ٣ـ٤] .

ـ وبعد قليل يكون الحديث عن نصيب النساء مما ترك الوالدان ، فيقول تعالىٰ :

---

(١) في ظلال القرآن : المجلد الرابع ص٥٧٣ـ٥٧٥ ، وللتوسع أكثر يراجع الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي : ٥/ ٣ـ٧ .

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ [النساء : ٧] .

وعلق القرطبي علىٰ ذلك بقوله :

لما ذكر الله تعالىٰ أمر اليتامىٰ وصله بذكر المواريث ، ونزلت الآية في أوس بن ثابت الأنصاري ، توفي وترك امرأة يقال لها : أم كُجَّة وثلاث بنات له منها ، فقام رجلان هم ابنا عم الميت ووصياه يقال لهما : سُويد وعرفجة ، فأخذا ماله ولم يعطيا امرأته وبناته شيئاً ، وكانوا في الجاهلية لا يورّثون النساء ولا الصغير وإن كان ذكراً ، ويقولون : لا يُعطىٰ إلا من قاتل علىٰ ظهور الخيل ، وطاعن الرمح ، وضارب بالسيف ، وحازا الغنيمة ، فذكرت أم كُجَّة ذلك لرسول الله ﷺ فدعاهما ، فقالا : يا رسول الله ، ولدها لا يركب فرساً ، ولا يحمل كلاًّ ولا ينكأ عدوّاً ، فقال عليه السلام : « انصرف حتىٰ أنظر ما يحدث الله لي فيهن » فأنزل الله هذه الآية ردّاً عليهم ، وإبطالاً لقولهم وتصرفهم بجهلهم ، فإن الورثة الصغار كان ينبغي أن يكونوا أحق بالمال من الكبار ، لعدم تصرفهم والنظر في مصالحهم ، فعكسوا الحكم ، وأبطلوا الحكمة فضلوا بأهوائهم ، وأخطؤوا في رائهم وتصرفاتهم[1] .

ـ ثم يأتي الحديث عن نصيب النساء من الميراث بشكل تفصيلي وذلك في الآيتين / ١١ ـ ١٢/ وللتفصيل عنها يراجع الجامع لأحكام القرآن : ٥/ ٣٨ ـ ٤٢ .

ـ يتبع ذلك ، الحديث عن النساء اللاتي يرتكبن الزنىٰ ، وفي ذلك يقول تعالىٰ :

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٥/ ٣١ .

﴿ وَٱلَّتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾ [النساء : ١٥] .

إنه الحديث عن عقوبة الزنىٰ ، وكيف يجب أن تثبت الجريمة بأربعة شهود ذكور مسلمين ـ وهذا أمر خاص للتغليظ علىٰ المدّعي وستراً علىٰ العباد ـ وهنا تتحدث الآية عن العقوبة المفروضة في أول الأمر وهي الحبس في البيوت حتىٰ الوفاة ، لكن الآية منسوخة وذلك بعد أن توطدت دعائم الحكومة الإسلامية واستقر المجتمع وأعلنت الأحكام الإسلامية .

« خذوا عني قد جعل الله لهنّ سبيلاً البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثيب بالثيب جلد مائة والرجم » وسنرىٰ ذلك في سورة النور ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ .

وبعد قليل تتحدث السورة عن موضوع النهي عن نكاح نساء الآباء ، وعن المحرمات علىٰ الرجال ، فيقول تعالىٰ :

﴿ وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم

بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[1] [النساء : ٢٢ـ٢٤] .

ـ ثم يحدثنا عن قضية طالما جلجل وطنطن لها الأعداء والمستشرقون ألا وهي قوامة الرجل علىٰ المرأة ، وفي ذلك يقول الله تعالىٰ :

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ٣٤ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا﴾ [النساء : ٣٤ـ٣٥] .

(إن الأسرة هي المؤسسة الأولىٰ في حياة الأنسانية ، الأولىٰ من ناحية أنها نقطة البدء التي تؤثر في كل مراحل الطريق ، والأولىٰ من ناحية الأهمية لأنها تزاول إنشاء وتنشئة العنصر الإنساني ، وهو أكرم عناصر هذا الكون ، في التصوير الإسلامي ، وإذا كانت المؤسسات الأخرىٰ الأقل شأناً ، والأرخص سعراً : كالمؤسسات المالية والصناعية والتجارية . . وما إليها . . . لا يوكل أمرها ـ عادةً ـ إلا لأكفأ المرشحين لها ، ممن تخصصوا في هذا الفرع علمياً ، ودربوا عليه عملياً ، فوق ما وهبوا من استعدادات طبيعية للإرادة والقوامة ، إذا كان هذا هو الشأن في المؤسسات الأقل شأناً والأرخص سعراً ، فأولىٰ أن تتبع هذه القاعدة في مؤسسة الأسرة ، التي تنشىء أثمن عناصر الكون . . العنصر الإنساني .

والمنهج الرباني يراعي هذا ، ويراعي به الفطرة ، والاستعدادات الموهوبة لشطري النفس لأداء الوظائف المنوطة بكل منهما وفق هذه

---

(١) ولبيان المراد من هذه الآيات يراجع تفسير الإمام القرطبي : ٥/ ٦٨ ـ ٨٩ ، وفي ظلال القرآن للسيد قطب : ١/ ٥٩٧ ـ ٦١١ ، و٢/ ٦١٥ ـ ٦٢٢ .

الاستعدادات ، كما يراعي به العادلة في توزيع الأعباء علىٰ شطري النفس الواحدة ، والعدالة في اختصاص كل منهما بنوع الأعباء المهيأ لها ، المعان عليها من فطرته واستعداداته المتميزة المتفردة .

والمسلَّم به ابتداءً أن الرجل والمرأة كلاهما من خلق الله ، وأن الله ـ سبحانه ـ لا يريد أن يظلم أحداً من خلقه ، وهو يهيئهُ ويعده لوظيفة خاصة ، ويمنحه الاستعدادت اللازمة لإحسان هذه الوظيفة!

وقد خلق الله الناس ذكراً وأنثىٰ ، زوجين علىٰ أساس القاعدة الكلية في بناء هذا الكون ، وجعل من وظائف المرأة أن تحمل وترضع وتكفل ثمرة الاتصال بينها وبين الرجل ، وهي وظائف ضخمة أولاً وخطيرة ثانياً ، وليست هينة ولا يسيرة ، بحيث تؤدَّىٰ بدون إعداد عضوي ونفسي وعقلي عميق غائر في كيان الأنثىٰ : فكان عدلاً كذلك أن ينوط بالشَّطر الثاني ـ الرجل ـ توفير الحاجات الضرورية ، وتوفير الحماية كذلك للأنثىٰ ، كي تتفرغ لوظيفتها الخطيرة ، ولا يحمل عليها أن تحمل وتضع وتكفل ، ثم تعمل وتكد وتسهر لحماية نفسها وطفلها في آن واحد! وكان عدلاً كذلك أن يمنح الرجل من الخصائص في تكوينه العضوي والعصبي والعقلي والنفسي ما يعينه علىٰ أداء وظائفه هذه ، وأن تمنح المرأة في تكوينها العضوي والعصبي والعقلي والنفسي ما يعينها علىٰ أداء وظيفتها تلك ، وكان هذا فعلاً . . ولا يظلم ربك أحداً .

ومن ثم زُوّدت المرأة ـ فيما زودت به من الخصائص ـ بالرقة والعطف ، وسرعة الانفعال والاستجابة العاجلة لمطالب الطفولة ـ بغير وعي ولا سابق تفكير ـ لأن الضروريات الإنسانية العميقة كلها ـ حتىٰ في الفرد الواحد ـ لم تترك لأرجحة الوعي والتفكير وبطئه ، بل جعلت الاستجابة لها غير إرادية! لتسهيل تلبيتها فوراً وفيما يشبه أن يكون قسراً ،

ولكنه قسر داخلي غير مفروض من الخارج ، ولذيذ ومستحب في معظم الأحيان كذلك ، لتكون الاستجابة سريعة من جهة ومريحة من جهة أخرىٰ ، مهما يكن فيها من المشقة والتضحية! صنع الله الذي أتقن كل شيء .

وهذه الخصائص ليست سطحية ، بل هي غائرة في التكوين العضوي والعصبي والعقلي والنفسي للمرأة ، بل يقول كبار العلماء المختصين : إنها غائرة في تكوين كل خلية ، لأنها عميقة في تكوين الخلية الأولىٰ ، التي يكون من انقسامها وتكاثرها الجنين ، بكل خصائصه الأساسية!

وكذلك زود الرجل ـ فيما زود به من الخصائص ـ بالخشونة والصلابة ، وبطء الانفعال والاستجابة ، لأن وظائفه كلها من أول الصيد الذي كان يمارسه في أول عهده بالحياة إلىٰ القتال الذي يمارسه دائماً لحماية الزوج والأطفال إلىٰ تدبير المعاش ، إلىٰ سائر تكاليفه في الحياة ، لأن وظائفه كلها تحتاج إلىٰ قدر من التروّي قبل الإقدام ، وإعمال الفكر ، والبطء في الاستجابة بوجه عام! وكلها عميقة في تكوينه عمق خصائص المرأة في تكوينها ، وهذه الخصائص تجعله أقدر علىٰ القوامة ، وأفضل في مجالها ، كما أن تكليفه بالإنفاق ـ وهو فرع من توزيع الاختصاصات ـ يجعله بدوره أولىٰ بالقوامة ، لأن تدبير المعاش للمؤسسة ومن فيها داخل في هذه القوامة ، والإشراف علىٰ تصريف المال فيها أقرب إلىٰ طبيعة وظيفته فيها .

وهذا العنصران اللذان أبرزهما النص القرآني ، وهو يقرر قوامة الرجال علىٰ النساء في المجتمع الإسلامي ، قوامة لها أسبابها من التكوين والاستعداد ، ولها أسبابها من توزيع الوظائف والاختصاصات ، ولها أسبابها من العلة في التوزيع من ناحية ، وتكليف كل شطر ـ في هذا

التوزيع ـ بالجانب الميسر له ، والذي هو معان عليه من الفطرة .

وأفضليته في مكانها ، في الاستعداد للقوامة والدربة عليها ، والنهوض بها بأسبابها ، لأن المؤسسة لا تسير بلا قوامة ـ كسائر المؤسسات الأقل شأناً والأرخص سعراً ، ولأن أحد شطري النفس البشرية مهيأ لها ، معان عليها ، مكلف تكاليفها ، وأحد الشطرين غير مهيأ لها ، ولا معان عليها ، ومن الظلم أن يحملها ويحمل تكاليفها إلىٰ جانب أعبائه الأخرىٰ ، وإذا هو هيء لها بالاستعدادات الكامنة ، ودرب عليها بالتدريب العملي والعلمي ، فسد استعداده للقيام بالوظيفة الأخرىٰ ، وظيفة الأمومة ، لأن لها هي الأخرىٰ مقتضياتها واستعدادتها ، وفي مقدمتها سرعة الانفعال ، وقرب الاستجابة ، فوق الاستعدادات الغائرة في التكوين العضوي والعصبي ، وآثارها في السلوك والاستجابة!

إنها مسائل خطيرة أخطر من أن تتحكم فيها أهواء البشر ، وأخطر من أن تتركهم يخبطون فيها خبط عشواء ، وحين تركت لهم ولأهوائهم في الجاهليات القديمة والجاهليات الحديثة ، هددت البشرية تهديداً خطيراً في وجودها ذاته ، وفي بقاء الخصائص الإنسانية ، التي تقوم بها الحياة الإنسانية وتتميز .

ولعل من الدلائل التي تشير بها الفطرة إلىٰ وجودها وتحكمها ، ووجود قوانينها المتحكمة في بني الإنسان ، حتىٰ وهم ينكرونها ويرفضونها ويتنكرون لها .

لعل من هذه الدلائل ما أصاب الحياة البشرية من تخبط وفساد ، ومن تدهور وانهيار ، ومن تهديد بالدمار والبوار ، في كل مرة خالفت فيها هذه القاعدة ، فاهتزت سلطة القوامة في الأسرة ، أو اختلطت معالمها ، أو شذت عن قاعدتها الفطرية الأصلية .

ولعل من هذه الدلائل توقان نفس المرأة ذاتها إلىٰ قيام هذه القوامة علىٰ أصلها الفطري في الأسرة ، وشعورها بالحرمان والنقص والقلق وقلة السعادة ، عندما تعيش مع رجل لا يزاول مهام القوامة ، وتنقصه صفاتها اللازمة ، فيكل إليها هي القوامة! وهي حقيقة ملحوظة تسلم بها حتىٰ المنحرفات الخابطات في الظلام!

ولعل من هذه الدلائل أن الأطفال ـ الذين ينشأون في مؤسسة عائلية القوامة فيها ليست للأب ، إما لأنه ضعيف الشخصية ، بحيث تبرز عليه شخصية الأم وتسيطر ، وإما لأنه مفقود : لوفاته ـ أو لعدم وجود أب شرعي! قلّما ينشأون أسوياء ، وقل ألا ينحرفوا إلىٰ شذوذ ما ، في تكوينهم العصبي والنفسي ، وفي سلوكهم العملي والخلقي . .

فهذه كلها بعض الدلائل ، التي تشير بها الفطرة إلىٰ وجودها وتحكمها ، ووجود قوانينها المتحكمة في بني الإنسان ، حتىٰ وهم ينكرونها ويرفضونها ويتنكرون لها!) .

ثم ينقلنا صاحب الظلال إلىٰ طبيعة المرأة المؤمنة الصالحة وسلوكها فيقول :

﴿ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ فمن طبيعة المؤمنة الصالحة ومن صفاتها الملازمة لها ، بحكم إيمانها وصلاحها ، أن تكون قانتة ، مطيعة ، والقنوت : الطاعة عن إرادة وتوجه ورغبة ومحبة ، لا عن قسر وإرغام وتفلت ومعاظلة!

ومن ثم قال : قانتات ، ولم يقل طائعات ، لأن مدلول اللفظ الأول نفسي ، وظلاله رخية ندية ، وهذا هو الذي يليق بالسكن والستر والصيانة بين شطري النفس الواحدة ، في المحضن الذي يرعىٰ الناشئة ، ويطبعهم بجوه وأناسه وظلاله وإيقاعاته! ومن طبيعة المؤمنة الصالحة ، ومن

صفاتها الملازمة لها ، بحكم إيمانها وصلاحها كذلك ، أن تكون حافظة لحرمة رباط المقدس بينها وبين زوجها في غيبته ـ وبالأولىٰ في حضوره ـ فلا تبيح من نفسها في نظرة أو نبرة ـ ما لا يباح إلا له هو ـ بحكم أنه الشطر الآخر للنفس الواحد .

وما لا يباح ، لا تقرره هي ، ولا يقرره هو : إنما يقرره الله سبحانه ﴿ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ . .

فليس الأمر أمر إرضاء الزوج أن تبيح زوجته من نفسها ـ في غيبته أو في حضوره ـ ما لا يغضب هو له ، أو ما يمليه عليه وعليها المجتمع ! إذا انحرف المجتمع عن منهج الله . . . إن هنالك حكماً واحداً في حدود هذا الحفظ ، فعليها أن تحفظ نفسها ﴿ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ والتعبير القرآني لا يقول هذا بصيغة الأمر ، بل بما هو أعمق وأشد توكيداً من الأمر ، إنه يقول : إن هذا الحفظ بما حفظ الله ، هو من طبيعة الصالحات ، ومن مقتضىٰ صلاحهن ! عندئذ تتهاوىٰ كل أعذار المهزومين والمهزومات من المسلمين والمسلمات ، أمام ضغط المجتمع المنحرف ، وتبرز حدود ما تحفظه الصالحات بالغيب ﴿ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ مع القنوت الطائع الراضي الودود .

فأما غير الصالحات ، فهن الناشزات (من الوقوف علىٰ النشز وهو المرتفع البارز من الأرض) وهي صورة حسية للتعبير عن حالة نفسية ، فالناشز تبرز وتستعلي بالعصيان والتمرد[1] .

ثم يستطرد الشهيد ـ رحمه الله ـ في شرح الإجراءات التي يجب أن

---

(١) من الملاحظ أننا نقلنا تحليل سيد رحمه الله تعالىٰ كاملاً لموضوع القوامة ، وذلك لما لهذا الموضوع من أهمية ، ولأنه أحد الاتهامات التي يوجهها الأعداء إلىٰ الإسلام ، ولمزيد من الشرح يراجع : في ظلال القرآن : ٢/ ٦٤٧ـ٦٥٧٨ .

تُتخذ في حال نشوز المرأة ، وهذا أمر حساس ودقيق ، منضبط وغير متروك لأهواء الرجال ، حيث يحدثنا عن المرحلة الأولىٰ وهي الموعظة ، ثم إن لم تنفع معها هذه الوسيلة ، ينتقل إلىٰ الوسيلة الأخرىٰ وهي الهجران في المضاجع ، فإن لم يتحرك إحساسها ولم تعد إلىٰ جادة الصواب ، ولم تلتزم بقوامة الرجل ، عندها لا بد من القناعة بأن هذه المرأة مصابة بمرض نفسي لا يجدي معه إلا المرحلة الثالثة وهي الضرب غير المبرّح .

فإن تحققت الغاية تقف الوسيلة ، فالغاية هي الطاعة ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ﴾ .

ـ ثم يؤكد البيان الإلهي علىٰ الميزان الدقيق العادل ، والذي قرره ـ كما رأينا من قبل ـ في سورة آل عمران ، وفي ذلك يقول الله تعالىٰ :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء : ١٢٤] .

وبعد قليل يعيد إلىٰ الأذهان موضوع ميراث المرأة فيقول تعالىٰ :

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴾ [النساء : ١٢٧] .

وبعدها يأتي الحديث القرآني عن كيفية مصالحة المرأة للزوج عند خوف النشوز ، ثم عن الإرشادات لمن كان في عصمته أكثر من امرأة ، وفي ذلك يقول الله تعالىٰ :

﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ

كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾[1] [النساء : ١٢٨ـ١٣٠] .

* * *

في سورة المائدة

يأتي الحديث في بداياتها عن الزواج من عفيفات أهل الكتاب ومن المؤمنين ويكون الشرط في الرجال العفة وعدم المجاهرة بالزنا وعدم اتخاذ معشوقات ، والشرط في النساء أن يكن محصنات ، وفي ذلك يقول الله تعالىٰ :

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ ۖ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة : ٥] .

وقد تقدم شرح ذلك في سورة النساء ، ولمزيد من الإيضاح حول ما ترشد إليه هذه الآيات يراجع كتب التفسير التالية[2] .

ـ ثم يأتي الحديث عن السرقة ليبيّن الله تعالىٰ من خلاله المساواة بين

---

(١) للتوسع في بيان أحكام هذه الآيات وما ترشد إليه يراجع :
الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ٥/ ٤٠٣ـ٤٠٧ ، وأحكام القرآن لابن العربي : ١/ ٦٣٢ـ٦٣٤ ، وجامع البيان عن تأويل القرآن للطبري : ٥/ ٣٠٥ـ٣١٩ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي : ٢/ ٣٨ـ٤٩ ، وتفسير الطبري : ٦/ ١٠٠ ، وتفسير القرطبي : ٦/ ٧٨ـ٨٢/ .

الرجل والمرأة ـ في العفو والحدود ـ فيقول تعالىٰ :

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٨ـ٣٩] .

وللموضوع تشعبات فقهية كثيرة ، أوصلها ابن العربي إلىٰ تسعاً وعشرين مسألةً وذلك في كتابه أحكام القرآن : ٢/ ١٠٢ ـ ١٢١ .

ـ ثم يحكم الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ بالكفر علىٰ من يجعل من السيد المسيح إلهاً ، ويعتبر ذلك إشراكاً ، ويهدد بأن مصيره نار جهنم ، بعد ذلك القول الصريح يبيّن الله سبحانه حقيقة عيسىٰ ـ عليه السلام ـ وحقيقة أمه مريم ، ويمدحها ويثني عليها ويصفها بالصدّيقة ، وفي ذلك فخر للنساء جميعاً ، فيقول تعالىٰ :

﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۖ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المائدة : ٧٥] .

* * *

في سورة الأعراف

يتحدّث البيان الإلهي عن قصة آدم ـ عليه السلام ـ وحواء ، وكيف استغربت حواء حين حملت وتغير وضعها ، وفي ذلك يقول تعالىٰ :

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ

عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف : ١٩ـ٢٣] .

ثم يقول الله تعالىٰ في أواخر هذه السورة :

﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف : ١٨٩ـ١٩٠] .

ـ ثم يتحدث البيان الإلهي عن فعلة ابتدعها قوم لوط ـ عليه السلام ـ حيث تركوا التمتع بالنساء حسب ما تقتضيه الفطرة والأمر الإلهي ، وراحوا يجامعون الرجال!! ثم كيف نصحهم سيدنا لوط ، وكيف ردُّوا عليه ، وكيف كانت عاقبتهم .

وسنبسط القول في ذلك فيما بعد ، يقول تعالىٰ :

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾

[الأعراف : ٨٠ـ٨٤] .

* * *

في سورة التوبة

وفي أماكن متفرقة ، يتحدث البيان الإلهي عن تعذيب المنافقات كما المنافقين ، وعن العلاقة الحميمة بين المؤمنين والمؤمنات ، وكيف أن الله سيرحم المؤمنين والمؤمنات جميعاً ، ثم عن وعد الله للمؤمنين والمؤمنات بالجنات والنعيم الخالد ، يقول الله تعالىٰ في المنافقات وعلاقتهم بالمنافقين :

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [التوبة : ٦٧-٦٨] .

(إن المنافقين والمنافقات كالشيء الواحد في الخروج عن الدين ، وإنهم ليسوا من المؤمنين ـ ولو حلفوا بذلك ـ ولكن بعضهم من بعض ، أي متشابهون في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ، وقبض أيديهم عبارة عن ترك الجهاد ، وفيما يجب عليهم من حق ، والنسيان هنا أي الترك : أي تركوا ما أمرهم الله به فتركهم في الشك ، وقيل : إنهم تركوا أمره حتىٰ صار كالمنسيّ مصيرهم بعزلة المنسيّ من ثوابه .

وقال قتادة : نسيهم أي من الخير ، فأما من الشر فلم ينسهم ، والفسق : الخروج عن الطاعة والدين ، إنه وعد الله لهم بأن يصلوا نار جهنم ، وهذا جزاء ووفاء لعملهم في الدنيا ، وأما اللعن فهو البعد ، أي من رحمة الله ، ولهم عذاب واصب دائم)[1] .

---

(١) (بتصرف) من تفسير القرطبي ، وللتوسع يراجع جامع البيان عن تأويل آي القرآن =

وأما الحديث عن المؤمنين والمؤمنات ، فيقول الله تعالىٰ فيه :

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ٧١ـ٧٢] .

ويعلِّق الإمام الطبري علىٰ هذه الآيات بقوله : يقول تعالىٰ ذكره : وأما المؤمنون والمؤمنات ، وهم المصدقون بالله ورسوله ، وآيات كتابه ، فإن صفتهم أن بعضهم أنصار بعض وأعوانهم ﴿يأمرون بالمعروف﴾ أي يأمرون الناس بالإيمان بالله ورسوله ، وبما جاء من عند الله ﴿ويقيمون الصلاة﴾ أي يؤدّون الصلاة المفروضة و﴿يؤتون الزكاة﴾ أي ويعطون الزكاة المفروضة أهلها ﴿ويطيعون الله ورسوله﴾ فيأتمرون لأمر الله ورسوله وينتهون عما نهيناهم عنه ، ﴿أولئك يرحمهم الله﴾ أي هؤلاء الذي هذه صفتهم الذي سيرحمهم الله ، فينقذهم من عذابه ، ويدخلهم جنته ، لا أهل النفاق والتكذيب بالله ورسوله ، الناهون عن المعروف ، الآمرون بالمنكر ، القابضون أيديهم عن أداء حق قوله لله من أموالهم ، وعد الله الذين صدقوا الله ورسوله ، وأقرّوا به ، وبما جاء من عند الله من الرجال والنساء ، جنات تجري من تحتها الأنهار ، أي بساتين و . . .[1] .

❊ ❊ ❊

= للطبري : ١٠/ ١٢١ .

(١) بتصرف واختصار من تفسير الطبري : ١٠/ ١٧٨ .

وفي سورة هود

يتحدث البيان الإلهي عن قصة قوم لوط ـ عليه السلام ـ ، وعن حواره معهم من أجل ترك تلك الرذيلة والعودة إلىٰ فطرة الله ، ثم عن كيفية تدمير أولئك القوم بما فيهم امرأة سيدنا لوط ـ عليه السلام ـ فيقول الله تعالىٰ :

﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [هود : ٧٨ـ٨١] .

ولتفصيل أحداث هذه القصة يراجع كتاب قصص الأنبياء للإمام ابن كثير : ١/ ٢٦٨ ـ ٢٨٦ .

ـ ثم يحدثنا القرآن في السورة نفسها عن قصة امرأة خليل الرحمن سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ وهي سارة ، وكيف أنها كانت كبيرة في السن ، ولما سمعت الملائكة تبشّر زوجها بالولد إسحاق ـ عليه السلام ـ ، تعجبت من ذلك وقالت : ﴿يا ويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً﴾ لكن الله إذا أراد كان المراد ، لقد عاشت حتىٰ رزقت به ثم حتىٰ رأت ولده أيضاً وهو يعقوب بن إسحاق ـ عليهما السلام ـ .

ثم كيف تكون خاتمة القصة بقوله تعالىٰ : ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾ وهذا تكريم للنساء جميعاً ، فالمرأة تعتبر من أهل بيت الزوج . . . وفي ذلك يقول تعالىٰ :

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ

بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾[1] [هود : ٦٩-٦٣] .

* * *

في سورة يوسف

تأتي قصة نبي الله يوسف ـ عليه السلام ـ بشكل طويل وتفصيلي ، وما يهمنا هنا هو الإغراء الذي تعرض له من قبل امرأة عزيز مصر ـ وهي زليخا ـ ، ثم كيف رفض ذلك والتجأ إلىٰ الله ـ سبحانه ـ ، ثم كيف أعادت المحاولة مرة ومرة ، ثم كيف أغلقت الأبواب وكيف حاول الهرب وكيف مزقت قميصه حين كانت تجذبه إليها ، وكيف شاع الخبر بين النساء عند مراودة زليخا لسيدنا يوسف ، ثم كيف فعلت ، وبالتالي اعترافها بخطئها ، والقصة قد فصلها ابن كثير في كتابه قصص الأنبياء : ١/ ٣١٧ ، والطبري في تفسيره : ١٢/ ١٥٠ ، والقرطبي في تفسيره أيضاً : ٩/ ١٢٢ . . . ، وأما الآيات فهي قوله تعالىٰ : ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ

---

(١) تفصيل أحداث هذه القصة يراجع التفاسير التالية :
تفسير الطبري : ١٢/ ٦٨-٧٧ ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ٩/ ٦٥ - وقصص الأنبياء لابن كثير : ١/ ٢٣٦ . . .

وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف : ٢٣ـ٣٣] .

وبعد عدة آيات تنكشف الحقيقة وتعترف زليخا بما فعلت ـ من مراودتها لسيدنا يوسف ـ وتعلن أنه بريء من ذلك ، عندها يخرج من السجن ويتولىٰ إدارة الدولة من الناحية المالية ، وفي ذلك يقول تعالىٰ :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [يوسف : ٥٠ـ٥٢] .

* * *

في سورة الرعد

يرد الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ من أنكر علىٰ سيدنا رسول الله ﷺ تزوجه بالنساء ، ليقول لهم : الزواج بين الأنبياء وزوجاتهم شأن المرسلين من قبل النبي ﷺ ، فلماذا تنكرون عليه ما كانوا عليه ؟!

لقد كان للرسل زوجات وأولاد ، وكذلك حدث لخاتمهم عليه الصلاة والسلام .

وفي ذلك يقول تعالىٰ :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ [الرعد : ٣٨] .

ـ ثم يقرر البيان الإلهي حقيقةً فيها الردُّ علىٰ كل من يحاول أن ينسب إلىٰ القرآن انتقاصه للمرأة ، فيقرر أن الذين يوفون بعهد الله ، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل والذين يخافون الله ويخافون من حسابه ، والذين صبروا وأقاموا الصلاة وأنفقوا ، كل أولئك سيدخلون الجنة ، هم ومن كان صالحاً من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، إنه لا فرق في الجزاء بين الرجال والنساء ، فدخول الجنة ليس حكراً علىٰ الرجال ، ودخول النار ليس من اختصاص النساء!!

إنما كلٌّ علىٰ حسب عمله ، فإن كان خيراً فالجزاء الجنة ـ سواءً أكان رجلاً أم امرأة ـ وإن كان العمل سيئاً ، فالجزاء النار ـ سواءً أكان رجلاً أم امرأة ـ وهذه اللافتة التي أعلنها القرآن الكريم منذ خمسة عشر قرناً ـ عندما كانت المرأة تُباع وتشترىٰ في سوق النخاسة و . . . ـ وقد أوضحنا القول في ذلك ـ إنما هي دليل علىٰ الحضارة والرقي والمساواة في الشريعة الإسلامية بين الرجل والمرأة ، وهذا الأمر ليس من قبيل الدعاوي التي

لا أدلة عليها ، إنما هي حقائق رُسمت في القرآن وشرحها سيد الأنام ـ عليه الصلاة والسلام ـ وسار علىٰ ذلك الخلفاء الراشدون ومن بعدهم . . .
وفي ذلك يقول الله تعالىٰ :

﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد : ٢٠ـ٢٤] .

* * *

في سورة النحل

يندِّد البيان الإلهي بعادةٍ سيئةٍ كانت في الجاهلية وهي تضايقهم من الأنثىٰ عند ولادتها ، ثم يرسم القرآن تعبيرات وجوههم وانفعالاتهم وحيرتهم في أمر هذا المولود! أيضعه في التراب ؟ أم يتركه علىٰ قيد الحياة ويتحمّل وزره ؟!!

وفي ذلك يقول تعالىٰ :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾(١)

[النحل : ٥٨ـ٥٩] .

ـ ثم يؤكد البيان الإلهي حقيقةً رائعةً : أزواجكم خُلقوا منكم ـ فحواء

---

(١) وقد فصّل القول في ذلك الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب : ٢٠/ ٤٤ ـ ٤٥ ـ

من ضلع آدم ـ والحكمة من ذلك : هو أن الجنس يأنس لجنسه ويستوحش من غير جنسه ، ثم امتن الله تعالىٰ علىٰ البشرية بأن جعل من الأزواج والزوجات بنين وأحفاداً ـ من ذكور وإناث ـ وهذا الأمر لو تفكر الإنسان به لما وسعه إلا السجود للمنظم المبدع المكون الخالق ـ سبحانه ـ إنها علاقة حميمة بين الرجل والمرأة ثم بين الرجل وزوجه مع أولادهما ، ثم بينهم وبين الحفدة ـ أولاد الأولاد ـ

تُرىٰ هل في هذه العلاقة من تمييز بين رجل وامرأة ؟ بين ذكر وأنثىٰ ؟!

إنه كلام عربي فصيح واضح ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾[1] .

ـ ثم يعود البيان الإلهي إلىٰ التأكيد علىٰ حقيقة المساواة في الجزاء ـ بين الرجل والمرأة ـ ، فمن يعمل العمل الصالح وهو مؤمن فسيرزقه الله بالحلال في الدنيا ، ويضع في قلبه القناعة والسعادة من خلال معرفة الله وطاعته والتسليم لقضائه وقدره ، ويُبعد عنه عذاب القبر وما بعده . . كل هذا يتم للإنسان سواءً كان رجلاً أو امرأة ، وفي ذلك يقول تعالىٰ :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[2] [النحل : ٩٧] .

* * *

---

(١) يراجع في ظلال القرآن : ٤/ ٢١٧٥ .

(٢) ولتسليط الأضواء علىٰ هذه الآية يراجع التفاسير الآتية : الدر المنثور للسيوطي : ٤/ ١٣٠ ، وفتح القدير للشوكاني : ٣/ ٢٧٣ ، وتفسير ابن كثير : ٤/ ٥٢١ ، وتفسير الطبري : ١٤/ ١١٥ ، وتفسير القرطبي : ١٠/ ١٨٣ والبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي : ٥/ ٥٣٤ .

في سورة الإسراء

يأتي الحديث عن فاحشة الزنا من خلال نهي الله عنها وذلك بقوله :
﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٣٢] .

وهذا النهي يتعلق بالرجال والنساء ، وسنفصل القول في ذلك ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ ويأتي في السورة نفسها حديث عن أدبٍ رفيع وفضيلة وخلق سامٍ ، ألا وهو الإحسان إلىٰ الوالدين ، وذلك في قوله تعالىٰ :
﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [الإسراء : ٢٣ـ٢٤] .

وقد جاءت السنة النبوية شارحة ومفسرة ومؤكدة لهذا الأدب الرفيع ، وقد فصّلت القول في ذلك لمن أراد الاطلاع والاستزادة[1] .

* * *

في سورة مريم

يفصّل الله تعالىٰ قصة مريم وابنها عيسىٰ ـ عليه السلام ـ ضمن أسلوب قصصي رائع فيقول تعالىٰ :
﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ

---

(١) وذلك في كتابي : الأخلاق الإسلامية ، باب بر الوالدين : ١/ ١٤١ـ١٦٠ .

مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ
أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ
هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ
فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ
هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ
سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى
عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ
إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ
هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن
كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى
مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ
يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾
ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم : ١٥-٣٤] .

وقد فصل القول في ذلك العلامة ابن كثير في كتابه قصص الأنبياء : ٢/ ٣٧٠ ، والإمام الرازي في تفسيره الكبير « مفاتيح الغيب » : ٢١/ ١٧٧

* * *

في سورة طه

تتحدث الآيات عن قصة سيدنا موسىٰ ـ عليه السلام ـ وكيف أوحىٰ الله إلىٰ أمه ـ لما أراد فرعون قتل جميع الذكور في بلده ـ أن اقذفيه في صندوق وضعي الصندوق في نهر النيل ، ثم كيف أرسلت أمه شقيقةً له اسمها مريم لتتبع أخباره وبالتالي فقد كان قوم فرعون قد أخذوا الصندوق إلىٰ القصر

الفرعوني ـ ويشاء الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ أن يكون ذلك تحدياً لفرعون ، ففي قصره سيتربىٰ ألدَّ أعدائه رغم القرار الذي اتخذه هو بقتل الذكور . وفي ذلك يقول الله تعالىٰ :

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ . . . ﴾ [طه : ٣٧ـ٤٠] .

إنها قصة سيدنا موسىٰ ـ عليه السلام ـ ويظهر من خلالها دور المرأة ، المرأة الأم الحنون الرحيمة الخائفة علىٰ ولدها ، والتي لا تقر لها حال ، ولا تغمض لها عين ، والمرأة الأخت التي راحت تتبع الأخبار عن أخيها ، ثم أنها نصحتهم علىٰ من يكفله . .

ثم وفي نفس السورة ، وفي نفس القصة يظهر دور المرأة ، إنها المرأة الزوجة ، ابنة سيدنا شعيب والتي تزوجها سيدنا موسىٰ . . كل ذلك ليؤكد القرآن الكريم علىٰ حقيقة دور المرأة : سواءً كانت زوجاً ، أو أختاً ، أو أماً ، أو ابنةً . . إنها الشق الثاني في الحياة ، وهي تكمل الشق الأول وهو الرجل ، ولا تعارضه ، ولا تتسلط عليه ، ولا تريد أن تحتل دوره ومكانته ومكانه ، إن الحياة رُسمت وقسمت علىٰ شكل أدوار ، وهُيء كلٌّ لما يوافق دوره ، فالرجل له دور خاص ، والمرأة لها دور خاص ، وكلٌّ منهما قد ركب الله عقله وعاطفته وإحساسه وشعوره وجسده و . . علىٰ ما يناسب ذاك الدور ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ .

ولو أراد أيّاً من النوعين أن يضع نفسه في مكان النوع الآخر ، لحدث خلل له أول وليس له آخر ، ونعود إلىٰ قصة سيدنا موسىٰ ـ عليه السلام ـ ولنستمع إلىٰ البيان الإلهي في ذلك :

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾ [طه : ٩ـ١٠] .

ولمزيد من البيان والإيضاح عن قصة سيدنا موسىٰ ـ مع زوجه ، وفي المهد و . . يراجع كتاب قصص الأنبياء لابن كثير : ٢/ ٣ ـ ٢٥ ، وتفسير الرازي : ٢٢/ ١٣ ـ ٥٠ ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ١١/ ١٧٩ ـ ٢١١

* * *

في سورة المؤمنون

يعدّ الله سبحانه وتعالىٰ مريم وابنها سيدنا عيسىٰ آية ، حيث ولدته من غير أب ، وخُلق من غير نطفة ، أليس ذلك دليل علىٰ عظمة وقدرة وبديع خلق الله تعالىٰ ؟! إنها امرأة وهو رجل ولا فرق في ذلك فهو آية ، وهي آية أيضاً ، وفي ذلك يقول تبارك وتعالىٰ :

﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾

[المؤمنون : ٥٠] .

* * *

في سورة النور

تتحدث غالبية السورة عن أحكام تتعلق بالنساء ، أو عن أحكام مشتركة بين الرجل والمرأة ، ولن نذكر الآيات فهي كثيرة ، إنما نذكر أهم المواضيع ونحيل علىٰ المصادر والمراجع الموسوعية وخاصة في كتب التفاسير .

تحدثت السورة عن موضوع جريمة الزنا ، وذكرت عقوبة الزاني والزانية مائة جلدة وذلك إن لم يكونا متزوجين ، ثم يأتي الحديث عن نكاح المشركات ، وعن نكاح الزانية والزاني / الآية : ٣/ ، ثم عن رمي المحصنات وخاصة إن لم يأتوا بأربعة شهداء فعقوبتهم الجلد ثمانين جلدة / الآية : ٤ ـ ٥/

وإن رمىٰ الزوج زوجته بالزنىٰ ولم يكن معه شهداء فلا بد من الملاعنة بين الزوج والزوجة / الآيات : ٦ـ٩/ ، ثم هناك عرض تفصيلي لموضوع الإفك والذي اتهمت فيه أم المؤمنين سيدتنا عائشة رضي الله عنها ، ثم كيف برأها الله من فوق سبع سماوات : / الآيات : ١١ ـ ١٢و٢٣/ .

ثم عن التجانس بين الطيبين والطيبات ، وبين الخبيثين والخبيثات : / الآية : / ٢٦/ ثم تحديد موضوع الزينة للمرأة ، وأين يحق لها أن تظهر الزينة ، وأمام من عليها أن تخفيها : الآية / ٣١/ ، ثم عن نكاح الأيامىٰ ـ الرجال والنساء الذين ليس لهم أزواج ـ الآية/ ٣٢/ ، ثم النهي عن إكراه الفتيات علىٰ البغاء / الآية : ٣٣/

ثم أدب الاستئذان للدخول علىٰ النساء : / الآية : ٥٨/ ، ثم عن حكم الدخول علىٰ العجائز من النساء : / الآية : ٦٠/ ، ثم عن السماح بالأكل من بيوت القريبات والأقارب من آباء وأمهات ، أعمام وعمات ، أخوال وخالات. . .

وللتفصيل وبيان ما يدور حول تلك الأحكام والآداب و. . . تراجع التفاسير التالية[1] :

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي : ٣/ ٣٣١ـ٤٣٢ ، وجامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري : ١٨/ ٥٨ ، وتفسير ابن كثير : ٦/ ١٨ ، والبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي : ٦/ ٤٣١ ، وتفسير القرطبي : ١٢/ ١٦٤ـ٣٢٠. . . =

في سورة الفرقان

يحدثنا البيان الإلهي عن تقسيم البشر إلىٰ قسمين : قسم من جهة الذكور ينسب إليهم ، فيقال : فلان ابن فلان ، وفلانة بنت فلان ، وقسم آخر من جهة الإناث يصاهرون بهم ، القسم الأول لا يحل نكاحه ، والقسم الثاني : ما يحل نكاحه . . .

كل ذلك خلقه الله تعالىٰ من أصل واحد وهو الماء ، سواءً قلنا إن الماء الذي خلق منه أصول الحيوان ، كما في قوله تعالىٰ

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ﴾[النور: ٤٥].

وسواءً قلنا إنه النطفة ، كما في قول الله تعالىٰ :

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾ [الطارق: ٥-٦] .

المهم في الأمر أن ينتبه الإنسان للقضية الجوهرية ، وهي أن الذكورة ليست درجة يستعلي بها الذكر علىٰ الأنثىٰ ، والأنوثة ليست درجة تستغلها الأنثىٰ للوصول إلىٰ أمور بعيدة عن فطرة الله التي فطر الناس عليها . . .

إنما أصل الذكر والأنثىٰ واحد ، فلا فرق بينهما في الأصل أبداً ، والذي قرر ذلك هو علام الغيوب ـ سبحانه وتعالىٰ ـ ويشاء الله تعالىٰ أن يُطلعَ عباده في القرن العشرين عن طريق العلوم التجريبية والمخبرية والطبية و . . علىٰ أن الأصل للذكر والأنثىٰ واحد ، وفي ذلك يقول تعالىٰ :

= ولا بدّ من ملاحظة أن سورة النور يجب تعليمها للنساء ، خاصة الفتيات ، وذلك لما فيها من أحكام العفاف والسّتر ، وقد ورد أن الفاروق عمر ـ رضي الله عنه ـ أرسل إلىٰ أهل الكوفة يقول : علموا نساءكم سورة النور : [ذكره الشوكاني في فتح القدير : ٣/ ٥] وهناك أحاديث تدل علىٰ ذلك .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾

[الفرقان : ٥٤] .

وبعد هذه الحقيقة الواضحة ـ والتي غفل عنها كثير من البشر ـ جاء البيان الإلهي ليقرر أن هذا الأمر سهل علىٰ الله ، ولو شاء الله ـ سبحانه ـ لكان غير ذلك ، ولا اعتراض علىٰ حكم الخالق الصانع المبدع ، فقال تعالىٰ : ﴿وكان ربك قديراً﴾ قديراً حيث خلق من النطفة الواحدة نوعين من البشر ذكوراً وإناثاً ، فلماذا حولتم ذلك إلىٰ تميز بين الذكورة والأنوثة ؟!

ـ ثم يختم البيان الإلهي هذه السورة بصورة رائعة ، وهي تحلل صفات عباد الرحمن ، وذلك بقوله تعالىٰ :

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان : ٦٣] .

ومن صفاتهم : أنهم يطلبون من الله أن يجعل من أزواجهم وذرياتهم قرة أعين ، وأن يجعلهم للمتقين إماماً ، وفي ذلك يقول الإمام الرازي :

إنهم ـ عباد الرحمن ـ سألوا أزواجاً وذرية في الدنيا يشاركونهم ، فأحبوا أن يكونوا معهم في التمسك بطاعة الله تعالىٰ ، فيقوىٰ طمعهم في أن يحصلوا معهم في الجنة فيتكامل سرورهم في الدنيا بهذا الطمع ، وفي الآخرة عند حصول الثواب .

أو أنهم طلبوا من الله تعالىٰ أن يلحق أزواجهم وذرياتهم بهم في الجنة ليتمّ سرورهم بهم . . . [1] .

إنه ارتباط وثيق بين الرجل وزوجته وذريته ـ ذكوراً وإناثاً ـ في الدنيا ،

---

(١) التفسير الكبير (بتصرف واختصار) : ٢٤/ ١٠١ .

ويمتد ذلك الارتباط إلىٰ الآخرة ، وهل هناك شيء أجمل من أن يرىٰ الإنسان المؤمن زوجته وأولاده وأحفاده معه في الجنة ؟! إنها أمنية يحلم المسلم أن يرضىٰ الله عنه وأن يحقق له تلك الأمنية ، نسأل الله تعالىٰ أن يجعلنا من هؤلاء في الدنيا والآخرة . . .

إنه الدعاء الذي ينساب من أعماق النفس المؤمنة الراضية بما عند الله ، الواثقة بوعده ، والموقنة بإحسانه وجوده :

﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٤] .

* * *

في سورة النمل

يحدثنا البيان الإلهي عن جانب من قصة سيدنا سليمان ـ عليه السلام ـ ذلك أنه جمع ذات يوم الطير والوحوش والجن والإنس وسار في موكب فخم ، ولما وصل أحد الأودية ، سمع نملة تأمر النمل وتحذرهم وتعتذر عن سليمان ـ عليه السلام ـ وجنوده بعدم الشعور ، عند ذلك تبسم من قولها ، وتذكّر النعمة الكبيرة التي منحها الله له ـ من فهم ما تقوله النمل وغيرهم ـ فرفع يديه بالدعاء ، أن يلهمه الله شكر النعم الكثيرة التي منحها له ولولده داود ـ عليه السلام ـ ولوالدته الصالحة المؤمنة ، تلك المرأة التي كانت توصي ابنها فتقول : يا بني لا تُكثر النوم بالليل فإن كثرة النوم بالليل تدع العبد فقيراً يوم القيامة .

إنه الأدب مع الوالدين ـ ذكراً أو أنثىٰ ـ وليس هناك تفريق في ذلك أبداً ، وفي ذلك يقول الله تعالىٰ :

﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ

وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل : ١٩] .

بعد ذلك يحدثنا البيان الإلهي عن قصة بلقيس :

حيث تفقّد سليمان ـ عليه السلام ـ الطير ذات يوم فلم يجد الهدهد ، فهددّ وتوعّد ، حتىٰ إذا عاد الهدهد أخبره أنه رأىٰ امرأة تملك شعباً بأسره ، ولها عرش عظيم وبيدها كل شيء ، وتملك كل شيء و. . . وأبدىٰ الهدهد استغرابه لأنه رآها وقومها يسجدون للشمس ، وهو الطير الذي يعلم أن السجود لا يكون إلا لله الخالق الرازق ، فأرسل سليمان ـ عليه السلام ـ لها رسالة مع الهدهد ، وأمرها أن تمتثل لأوامره وتطيعه وأن تأتيه طائعة مستسلمة .

وعندما وصلها الكتاب جمعت وزراءها وأمراءها وأكابر دولتها ، وشاورتهم بالأمر ، لكنها مع ذلك قالت : سنرسل له بهدية ونرىٰ ماذا يفعل .

ولما وصل ذلك إلىٰ سليمان ـ عليه السلام ـ اشتاط غضباً لفعلتها ، وهدد بإرسال جيش جرار لا تستطيع هي ولا مملكتها الوقوف أمامه .

وعندما وصلها الخبر ، أعلنت إسلامها ، وانقادت لأوامر سليمان ـ عليه السلام ـ وتنتهي القصة بأن يتزوجها سليمان ويقرّها ملكة علىٰ اليمن ، وفي ذلك يقول تعالىٰ :

﴿. . . وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل : ٢٢ـ٢٥] .

﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّيٓ أُلْقِىَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ

ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۖ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾

[النمل : ٢٩ـ٣٥] .

﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[1] [النمل : ٤٢ـ٤٤] .

* * *

في سورة القصص

يبرز دور المرأة واضحاً في حياة واحد من الرسل ، بل ومن أولي العزم ـ عليهم جميعاً الصلاة والسلام ـ إنه سيدنا موسىٰ ، حيث المرأة الأم يبرز دورها في إلهام الله لها أن ترضعه ثم تلقيه في النيل ، ويربط علىٰ قلبها بأنه ـ سبحانه ـ سيرد ولدها عليها ، فما عليها إلا أن تنفذ الأمر ولا تخاف ولا تحزن .

﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [القصص : ٧] .

ثم يبرز دور المرأة الزوجة ـ زوجة فرعون ـ والتي استطاعت أن تخرق

---

(١) وللتوسع في قصة بلقيس مع سيدنا سليمان يراجع كتاب قصص الأنبياء للعلامة ابن كثير : ٢/ ٢٧٦ـ٢٨٤ .

القرار الذي اتخذه المجرم فرعون ، وذلك بقتل كل طفل ذكر ، ثم أقنعته بأن يترك لها هذا الغلام لتربيه وتقرَّ به عينها .

ثم المرأة الأم وكيف خافت علىٰ وليدها لولا عناية الله ولطفه به وبها ، ثم المرأة الأخت وكيف ذهبت تتجسس وتراقب لترىٰ ماذا حدث لأخيها :

﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ [القصص : ٩ـ١٢] .

ثم ينقلنا البيان الإلهي إلىٰ مرحلة شبابه ، وكيف هرب من فرعون ، فلما وصل إلىٰ ماء مدين وجد زحاماً عليها ، ثم رأىٰ فتاتين تنتظران ، وتقدّم موسىٰ ـ عليه السلام ـ فسقىٰ لهما ، وبعد قليل أتته إحداهما وطلبت منه أن يقابل والدها ، وهو سيدنا شعيب ـ عليه السلام ـ عندها طمأنه بأن ذلك هو الوحي فلا تخاف من أحد :

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾

[القصص : ٢٣ـ٢٦] .

ثم يحدثنا البيان الإلهي عن اتفاق موسىٰ وشعيب ـ عليهما السلام ـ علىٰ المهر للزواج من ابنة شعيب ـ عليه السلام ـ فيقول تعالىٰ :

﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴾[1] [القصص : ٢٧ـ٢٨] .

* * *

في سورة الروم

يعود البيان الإلهي ليؤكد حقيقة الأصل الواحد للبشرية ، وأن ذلك الأمر إنما هو من آيات الله ونعمه ، فالذكر والأنثىٰ أصلهما واحد ، وحواء خلقت من آدم ، وبنات حواء جميعاً خُلقن وسيخلقن من أصلاب الرجال وترائب النساء ، وبالتالي فالهدف من ذلك الترابط كله هو التآلف بين الأزواج ، والوداد والتراحم بينهم ، والعطف والوآم والسكينة بينهم ، ويتوج ذلك إنجاب الأولاد حتىٰ تشيع أجواء الحب والمودة والرحمة :

﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم : ٢١] .

* * *

في سورة لقمان

يؤكد البيان الإلهي علىٰ الأدب الرفيع ، وهو الأدب مع الوالدين ، ويذكّر الابن بموضوعٍ طالما يغفل الإنسان عنه ، خاصةً عندما يصبح شاباً مفتول العضلات ، ويصير له مركزاً مرموقاً بين الناس ، وتصبح الأموال

---

(١) ولشرح هذه الآيات يراجع : الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي : ١٣/ ٢٧٧ .

لديه كثيرة و. . . إنه موضوع الحمل ، وكم فيه من متاعب وصعوبات ، ولو أردنا أن نستعرض ما قاله الأطباء عن ذلك لرأينا العجب العجاب ، وحبذا لو اطلع المسلم علىٰ بعض المراجع ومنها علىٰ سبيل المثال لا الحصر[1] .

إنه تعب الحمل ، يليه تعب في الطَلْق ، يليه التعب الأكبر عند الوضع ، يلي ذلك كله تعب في مدة الرضاعة. . . وهل يستطيع الإنسان أن يوفيّ والديه حقهما ؟! أبداً ، خاصة الأم التي تعاني وتعاني ، وحين يكبر الأولاد ، وتصبح هي عاجزة كبيرة ، يلقيها بعضهم خارج البيت الفاخر!! أو يضعها في أماكن إيواء العجّز!! أهذا هو الوفاء ؟ أهذه هي النخوة ؟! هل جزاء الإحسان الإساءة ؟! لكن مع كل ما في الأمر من توجيه إلىٰ سماع رأي الوالدين. . . لا بدّ من التنبيه إلىٰ أن ذلك يتم ما لم يتعارض مع خط الله تعالىٰ ، فإن طالباه بأن يعبد غير الله ، ويشرك به ، فلا طاعة لهما حيث لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، لكن ومع ذلك فلا بدّ من برهما وصلتهما و. . .

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان : ١٤ـ١٥] .

* * *

(١) القرار المكين للدكتور مأمون شقفة ، وخلق الإنسان بين الطب والقرآن للدكتور محمد علي البار ، تفكّر ساعة للمؤلف : باب التفكر في الإنسان ، والطب في محراب الإيمان للدكتور خالص جلبي ، ومع الطب في القرآن : عبد الحميد دياب وأحمد قزموز .

في سورة الأحزاب

فيها حديث يطول حول النساء ، وهي تشبه إلىٰ حد ما سورة النور وسورة النساء ، لذلك سنقتصر علىٰ ذكر الآيات مع الدلالة علىٰ مصادر شرحها وتفسيرها ، حيث يطالعنا البيان الإلهي في أولها عن موضوع الظهار ـ وهو أن يقول الرجل لامرأته : أنت عليّ كظهر أمي ـ ويبيّن كم عليه من كفارة ، فيقول تعالىٰ :

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۖ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾[1] [الأحزاب : ٤] .

ثم ينقلنا البيان الإلهي إلىٰ الحديث عن أمهات المؤمنين ـ أزواج النبي ﷺ ـ وكيف أن حكم الزواج منهن كحكم الزواج من الأم ، وهذا التحريم مؤبد ويدخل في باب تعظيم النبي ﷺ واحترامه وتقديره ، فيقول تعالىٰ : ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾[2] [الأحزاب : ٦] .

ثم ينقلنا البيان الإلهي إلىٰ الحديث عن تخيير سيدنا رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأزواجه ، وذلك حينما سألنه شيئاً من عرض الدنيا ، وطلبن منه الزيادة في النفقة ، فما كان منه إلا أن خيّرهن بين الدنيا وزينتها ثم الطلاق ، أو بين الآخرة التي تأتي من رضىٰ الله ، ورضىٰ الرسول ، وحينها الأجر الكبير لمن أطاع واتبع :

---

(١) ولمزيدٍ من شرح هذه الآية يراجع التفسير الكبير « مفاتيح الغيب » للرازي : ٢٥/ ١٦٦ـ١٦٧ .

(٢) ولمزيد من تسليط الأضواء علىٰ معانيها يراجع : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للعلامة الألوسي : ٢١/ ١٧١ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[1] [الأحزاب : ٢٨ـ٢٩] .

بعد ذلك يطالعنا البيان الإلهي بموضوع مضاعفة العذاب لنساء النبي ﷺ إن أتين بعمل غير صالح ، من نشوز وعقوق زوج وفساد عشرته و . . . وذلك بسبب مكانتهن وارتفاع منزلتهن .

وكذلك فلهن ضعف الأجر إن أتين من الطاعات أي شيء :

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾[2] [الأحزاب : ٣٠ـ٣١] .

ثم يذكر الله تعالىٰ توجيهات لأزواج النبي ﷺ ويحضهنّ علىٰ العلم والعمل ، ثم يبين مكانتهن ، وذلك في تطهير الله لهن و . . . ، ثم يطالبهن بأن يذكرن موضع النعمة التي أنعمها عليهم ، حيث صيرهن في بيوت يتلىٰ فيها القرآن والسنة :

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ ۚ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾

[الأحزاب : ٣٢ـ٣٤] .

---

(١) ولبيان أحكام هذه الآية يراجع :
تفسير الإمام الطبري : ٢١/١٥٦ .

(٢) ولمعرفة تفسير هذه الآية يراجع : الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي : ١٤/١٦٩ .

ثم يعود البيان الإلهي ليؤكد علىٰ فكرة المساواة بين الذكر والأنثىٰ ، إنها مساواة في الجزاء ، ويكرر بصيغة الرجولة وصيغة الأنوثة ويضرب الأمثلة الكثيرة علىٰ ذلك ـ الإسلام ، والإيمان ، والقنوت ، والصدق ، والصبر والخشوع ، والإنفاق ، والصوم ، وحفظ الفرج ، وذكر الله ـ هذه الأعمال والصفات إن عملتها الأنثىٰ أو عملها الذكر فالجزاء مغفرةٌ من الله للذنوب التي ارتكبوها يناولون أجراً عظيماً يختمها الله بإدخالهم الجنة : وقد ذكر الإمام أحمد والنسائي والطبراني : أن أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ قالت : يا رسول الله ، فما لنا لا نُذكر في القرآن كما تُذكر الرجال ، فأنزل الله تعالىٰ قوله :

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾[1] [الأحزاب : ٣٥] .

ثم ينقلنا البيان الإلهي إلىٰ قصة زيد بن حارثة مع زينب ، ثم كيف طلقها وتزوجها رسول الله ﷺ ، وأن الحكمة من ذلك إلغاء فكرة التبنّي التي كانت سائدة في الجاهلية .

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [الأحزاب : ٣٧] .

---

(١) ولمعرفة تفسير هذه الآية يراجع : في ظلال القرآن ، سيد قطب : ٥/ ٢٨٥٣ .

ولشرح هذه الآية ، ومعرفة حقيقة هذه القصة ، وما دار حولها يراجع[1] .

ثم تنقلنا السورة إلىٰ قضية أخرىٰ هي : أن لا عدة في الطلاق قبل المسيس ، أي قبل أن يتم الجماع بين الرجل والمرأة :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾

[الأحزاب : ٤٩] .

ثم ينقلنا البيان الإلهي إلىٰ موضوع لباس المرأة وحجابها والتحدّث معها ، وذلك من خلال الحديث عن حجاب أمهات المؤمنين ، وعن أحكام خاصة بهن :

﴿ . . . وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾[2] [الأحزاب : ٥٣] .

ثم بعد ذلك يأتي التوجيه إلىٰ موضوع اللباس للمرأة لما في ذلك من أخطار علىٰ المجتمع ، وذلك إذا شرّع المجتمع لنسائه لباساً يوافق الرغبات والأهواء و . . . !!

---

(١) تفسير الرازي : ٢٥/ ١٨٣ ، والدر المنثور للسيوطي : ٥/ ٢٠٢ ، وتفسير الطبري : ١١/٢٢ ، وأحكام القرآن لابن العربي : ٤/ ١٥٤٤ ، وفتح القدير للشوكاني : ٤/ ٤٠١ ، وصحيح البخاري : ٩/ ١٥٢ ، وسنن الترمذي : / ٣٥٤ ، ودلائل البيهقي : ٣/ ٤٦ ، وطبقات ابن سعد : ٨/ ١١٤ ، وسيرة ابن هشام : ٤/ ٣٢٢ ومسند الإمام أحمد : ٣/ ١٦٣ ، وسيرة سيد الأنام ـ عليه الصلاة والسلام ـ للمؤلف : ٣/ ١٤٥ .

(٢) ولمزيد من معرفة تفسير هذه الآية يراجع : تفسير ابن كثير : ٣/ ٥٠٦ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[1] [الأحزاب : ٥٩] .

ثم يؤكد حقيقة المساواة بين الرجل والمرأة إنها المساواة في العذاب ، كما المساواة في التوبة والغفران ، فيقول الله تعالىٰ في ختام السورة :

﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[2] [الأحزاب : ٧٣] .

❊ ❊ ❊

في سورة الزمر

يعيد الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ الأذهان حقيقة خلق آدم ـ عليه السلام ـ ليقرر من خلال ذلك أن ألأصل واحد ، ومن كان أصلهما واحد فلا يحق لأحدهما أن يرتفع عن الآخر ويستعلي عليه ، وفي ذلك يقول الله تعالىٰ :

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾[3] [الزمر : ٦] .

❊ ❊ ❊

---

(١) ولبيان أحكامها يراجع : البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي : ٧/ ٢٥١ ، وأسباب النزول للواحدي : ٢٧٣ .

(٢) يراجع تفسير الدر المنثور للسيوطي : ٥/ ٢٥٥ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ١٤/ ٢٤٥ ، وفتح القدير للشوكاني : ٣/ ٤٣٤ .

(٣) لمزيد من الإيضاحات حول هذا التطور في الخلق يراجع : التفسير الكبير للرزي : ٢٦/ ٢١٢ـ٢١٤ .

في سورة غافر ـ المؤمن ـ

يحدثنا البيان الإلهي عن دعاء حملة العرش وغيرهم من الملائكة للمؤمنين والمؤمنات ، وهذا إقرار علوي بالمساواة بين الرجل والمرأة :

﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

[غافر : ٧ـ٩] .

ثم يؤكد علىٰ حقيقة المساواة في الجزاء ، إن كان العمل صالحاً فالجنة ونعيمها ـ سواءٌ كان ذلك صادراً عن رجل أو امرأة ـ وإن كان العمل سيئاً فالنار وعذابها ـ سواءً كان ذلك صادراً عن رجل أو امرأة ـ :

﴿ مَّنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

[غافر : ٤٠] .

* * *

في سورة الشورىٰ

يبين الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ كيفية انتشار الذكور والإناث ، وكيفية أمور يعجز العقل عندها : فهذا رجل يأتيه جميع الأولاد ذكور ، وذلك رجل يكون أولاده جميعهم إناث ، وذاك آخر يكون أولاده أكثرهم ذكور ، وذاك الآخر يكون إناثه أكثر ، وذاك رجل لا يأتيه أولاد أبداً ، فمن الذي نظّم ذلك كله ؟!

حتىٰ الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فإبراهيم كانت ذريته كلها ذكوراً ، ولوط وشعيب كانت ذريتهما إناثاً ، وعيسىٰ ويحيىٰ لم يكن لهما ذرية ، وسيدنا رسول الله ﷺ كانت ذريته أكثرها بنات ـ رقية وأم كلثوم وفاطمة وزينب : إناث ، والقاسم وعبد الله وإبراهيم : ذكور ـ .

إذن : لا دخل للأنثىٰ بتحديد نوع الجنين ، كما لا دخل للرجل في ذلك ، إنما مصدر ذلك كله من بيده كل شيء ـ إنه الله سبحانه ـ مالك الملك ، والعالم القدير .

لذلك قرر الله ـ سبحانه ـ في أول الآية بأنه مالك الملك ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فهل بعد ذلك يحتج إنسان علىٰ امرأته ويغضب ويهدد ويطلّق و . . إذا رُزق بمولود أنثىٰ ؟!

ما دخل المرأة بذلك ؟ بل ما دخل الرجل بذلك ؟ والله يقول :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝ ﴾[1] [الشورى : ٤٩ـ٥٠] .

يخلق هو ، ويهب الإناث هو ، ويهب الذكور هو ، ويهب الذكور والإناث هو ، ويحرم من الذكور والإناث هو ، فمن عنده اعتراض علىٰ من بيده كل شيء ؟!

* * *

(١) للتوسع في ذلك يراجع : أحكام القرآن لابن العربي : ٤/ ١٦٧٣ .

في سورة محمد

يأتي التوجيه إلىٰ رسول الله ﷺ بأن يستغفر الله ليعصمه الله من الذنوب ، وبأن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات ، وذلك بأن يكون شفيعهم في الآخرة ، وفي ذلك يقول الله :

﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾ [محمد : ١٩] .

* * *

في سورة الفتح

يعود إلىٰ تقرير حقيقة المساواة بين الذكر والأنثىٰ ، فالمؤمنون والمؤمنات يدخلون الجنة وتُغفر ذنوبهم ويفوزون بالمقام الرفيع عند الله .

والمنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات يدخلون نار جهنم وبئس المصير ، وينالون غضب الله عليهم ، ولهم العذاب الكبير في الدنيا والآخرة :

﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [الفتح : ٥-٦] .

* * *

في سورة الحجرات

يتحدث البيان الإلهي عن موضوع الأدب بين أفراد المجتمع ، وعن الأخلاق السامية التي يجب أن تشيع بين الأفراد ، فيندد بظاهرة السخرية بين الأفراد ، ويتحدث عن اللمز والألقاب السيئة ، ثم يهدد من لم يتب من ذلك بالنار ولا يفرّق بين الرجال والنساء في ذلك ، فيقول تعالىٰ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الحجرات : ١١] .

وبعد هذه التوجيهات يقرر حقيقة المساواة ـ بين الذكور والإناث ـ ويُعيد إلىٰ الأذهان أن الأصل واحد ، وأن الهدف من إيجاد الناس شعوباً وقبائل إنما كان من أجل أن يتعارفوا ، فيصل كل واحد رحمه ، لا أن يتفاخر بنسبه ، لينادي هذا من هناك : أن الشعب الألماني تجري في عروقه الدماء الصافية! فيردّ عليه آخر بأن الشعب اليهودي هو شعب الله المختار ، ليقول آخرون : نحن أبناء الله وأحباؤه! وهكذا ينسىٰ الناس الأصل الواحد ، والهدف من الإيجاد شعوباً وقبائل علىٰ هذا النحو .

إن ميزان الله لا ينظر إلىٰ الأجساد والألوان ولا إلىٰ الصور والألقاب والشعارات ، إنما ينظر إلىٰ التقوىٰ ، من زاد فيها فليفتخر لأنها أشرف شيء عند الله ، ولو أن البشر وعَوا هذ الحقيقة ، وتذكروا دائماً أنهم يتصلون بنسب واحد ، ولهم أب واحد وأم واحدة ، وأن الكل سواء ، ولا مفاضلة إلا بالتقوىٰ . . . لو أنهم تذكروا ذلك لما رأينا الحروب التي بينهم ، ولما رأينا إنساناً يموت من الجوع والفقر والحرمان وقلة الرعاية

الصحية ، إلىٰ جانب إنسان آخر يموت من التخمة وأمراض السمنة والتشحّم ! ![1] .

وقد أحسن العلامة الألوسي حين نقل في تفسير هذه الآية قول سيدنا رسول الله ﷺ وهو يخطب في منىٰ : « يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي علىٰ عجمي ، ولا عجمي علىٰ عربي ، ولا أسود علىٰ أحمر ، ولا لأحمر علىٰ أسود ، إلا بالتقوىٰ ، ألا هل بلغت » .

وما أجمل قول الإمام علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ في ذلك :

الناس من جهة التمثيل أكفاء	أبوهم آدمٌ والأم حواء
نفس كنفس وأرواح مشاكلة	وأعظمٌ خُلقت فيهم وأعضاء
فإن يكن لهُم من أصلهم حسبٌ	يفاخرون به فالطين والماء
ما الفضل إلا لأهل العلم إنهمُ	علىٰ الهدىٰ لمن استهدىٰ أدلاّء
وقدْرُ كل امرىء ما كان يجهله	والجاهلون لأهل العلم أعداء

ولنستمع إلىٰ كلام الله تعالىٰ في ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

* * *

في سورة الحديد

ينقلنا البيان الإلهي إلىٰ يوم المرور علىٰ الصراط ، إنه يوم عصيب يحتاج فيه الإنسان لمن يدله علىٰ الصراط ويأخذ بيده إلىٰ أن يتجاوزه ،

---

(١) للتوسع في هذا التفاوت ، وكيف ردم الإنسان هذه الهوّة بينهما يراجع كتاب : الفقراء والأغنياء في ميزان الشريعة الإسلامية للمؤلف : ٢٨٨ـ٣١٩ .

لكن المؤمنين والمؤمنات يعطيهم الله ـ سبحانه ـ نوراً ينبثق من توحيدهم لله وطاعتهم له في الدنيا ، فيضيء لهم الصراط ويُطرد الظلام من أمامهم ، ثم تتلقاهم الملائكة بالترحاب والتسليم والبشارة برضىٰ الله والفوز في الجنة .

وأما المنافقون والمنافقات فيطلبون من المؤمنين والمؤمنات أن يدلوهم علىٰ المكان الذي أتوا منه بها النور! وهل القضية بيع وشراء ؟! فيرد عليهم المؤمنون والمؤمنات ردّاً فيه تهكم وسخرية : عودوا إلىٰ الدنيا واعملوا صالحاً فستعطون نوراً كالذي معنا!! لكن أنّىٰ لهم ذلك ؟

﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ [الحديد : ١٢ـ١٣] .

وبعد قليل يعود البيان الإلهي إلىٰ تأكيد حقيقة المساواة بين الرجل والمرأة ، فالمصدّق والمصدّقة ، ومن ينفق ومن تنفق في سبيل الله ، سيجزيهم الله أضعاف ذلك من الحسنات والأجر العظيم ، ثم سيكون المآل هو الجنة :

﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [الحديد : ١٨] .

* * *

في سورة المجادلة

يحدثنا الله تعالىٰ عن قصة خولة بنت ثعلبة مع زوجها أوس بن الصامت ، ذلك أن أوساً كان شيخاً كبيراً ، فدخل علىٰ خولة ذات يومٍ

فراجعته بشيء فغضب ، فقال لها : أنت عليّ كظهر أمي ، وبعد قليل عاد إليها يمازحها ويرادوها عن نفسها ، فأبت وقالت : والله لا يحدث ذلك حتىٰ ينزل الله فينا قرآناً ، ثم ذهبت إلىٰ رسول الله ﷺ وحكت له حكايتهما ، وبعد قليل نزل جبريل بقول الله تعالىٰ :

﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1] [المجادلة : ١-٤] .

* * *

في سورة الممتحنة

حديث طويل عن قضية بيعة النساء ، وعن قصة امتحان المسلمات المهاجرات ، وذلك بأن يحلفن أنهن مسلمات حقيقة ، وكان ذلك في يوم الحديبية :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ

---

(١) للتوسع يراجع : تفسير القرطبي : ٢٥٨/١٧ ، وتفسير الكشاف للزمخشري : ٧١/٤ ، وسنن ابن ماجه رقم (١٨٨) وسنن أبي داود رقم (١٧) وسنن الترمذي : ٤٠٦/٥ .

أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾

[الممتحنة : ١٠ـ١٢] .

* * *

في سورة الطلاق

حديث طويل عن جانب مهم يتعلق بالحياة الزوجية بين الرجل والمرأة ، إنه موضوع الطلاق ، ففصل البيان الإلهي موضوع عدة المطلقة ، وأين تسكن وقت طلاقها ، ومن سيُنفق عليها وعلىٰ من تُرضع و . . . وهناك تفصيلات أخرىٰ في هذه السورة تراجع في كتب التفسير التالية :

الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ١٨/ ١٤٣ ، وأحكام القرآن لابن العربي : ٤/ ١٨٢٦ ، وجامع البيان عن تأويل آي القرآن : ٢٨/ ٨٩ ، والدر المنثور للسيوطي : ٦/ ٢٣٢ ، وتفسير ابن كثير : ٤/ ٣٧٨ ، وفتح القدير للشوكاني : ٥/ ٣٤٥ ، والبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي : ٨/ ٢٨٥ ، وتفسير الرازي : ٣٠/ ٢٧

* * *

في سورة التحريم

نقلة نوعية إلىٰ داخل بيت رسول الله ﷺ ، لتصور لنا حقيقة علاقته مع زوجاته ، وعلاقتهن ببعضهن :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

[التحريم : ١] .

ثم يقول تعالىٰ :

﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ [التحريم : ٣ـ٥] .

ثم يأتي التوجيه إلىٰ المؤمنين بأن يبعدوا أهليهم وأنفسهم عن النار ، وذلك من خلال إطعامهم اللقمة الحلال ، وإكسائهم الثوب من الحلال ، وتثبيت العقيدة في نفوسهم ، وأن يسيروا علىٰ خطىٰ أزواج رسول الله ﷺ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : ٦] .

وبعد قليل يحدثنا بيان الله عن نموذجين من عالم النساء :

النموذج الأول :

وهما زوج سيدنا نوح ، وزوج سيدنا لوط ـ عليهم السلام ـ هاتان المرأتان عاشتا في بيت نبوي ، ولكنهما بقيتا كافرتين ، فهل شفع لهما أنهما زوجتا نبيين[1] ؟! أبداً ، فالمسألة ليست بالأحساب والأنساب ،

---

(١) للتفصيل يراجع قصص الأنبياء لابن كثير : ١/ ٢٨٢ ، والدر المنثور للسيوطي : ٢/ ١٨٥ .

إنما القضية فيها فصل واضح حاسم : فإما إيمان تكون نتيجته الجنة ، وإما كفر وتمرد وعصيان تكون نتيجته النيران .

والنموذج الثاني :

يضمُّ امرأة فرعون ، إنها آسية بنت مزاحم ، آمنت بموسىٰ ـ عليه السلام ـ ورأت النور بعيني رأسها وقلبها ، لكن ذلك جرَّ عليها المتاعب ، فعذبها فرعون ، وربطها بالأوتاد في رابعة الشمس الحارة ، لكنها صبرت وتعلقت بالله ، وناجته ودعته فاستجاب الله لدعائها[1] .

وإلىٰ جانبها ـ في المثال ـ مريم بنت عمران ، تلك المرأة الطاهرة العفيفة ، والتي اعتصمت بالقيم والمبادىء الفاضلة ، يقول تعالىٰ :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ [التحريم : ١٠ـ١٢] .

* * *

في سورة المعارج

يؤكد حقيقة ذكرها في سورة المؤمنون وهي حفظ الفروج ، وأن من لم يتقيد بذلك فهو متجاوز إلىٰ الحرام ، يقول تعالىٰ :

---

(١) يراجع تفسير القرطبي : ١٨/ ١٩٤ ، والبحر المحيط : ٨/ ٢٩٥ .

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ [المعارج : ٢٩ـ٣٠] .

❊ ❊ ❊

في سورة القيامة

وبعد أن حدثنا عن قصة أبي جهل وسخريته من الرسول وما أتىٰ به ، وخاصةً الحديث عن يوم القيامة وما جاء فيه عن نار جهنم وخزنتها .

بعدها جاء التذكير بأصل الإنسان : إنك نطفة من أبيك ، قُذفت في رحم أمك ، ثم أصبحت النطفة علقة ، ثم كونها البارىء المصور بشراً مستقلاً ، ومن خلال ذلك عاد هذا الإنسان ليعطي نطافاً فيها الذكور والإناث ـ أصلهما ـ وفي ذلك يقول تعالىٰ :

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾(١)

[القيامة : ٣٦ـ٤٠] .

❊ ❊ ❊

في سورة عبس

يحدثنا القرآن عن النفخة الثانية والتي يكون معها البعث ، وحينها يهرب الإنسان من أقرب الناس إليه وأحبهم إلىٰ قلبه ، إنه يفر من أولئك الناس الذين كان يفرّ إليهم ويستجير بهم في دار الدنيا ، يهرب منهم وهم

---

(١) لمزيد من شرح هذه الآيات يراجع التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي : ٢٩/ ٢٦٩ـ٢٧٨ .

خاصته ، ومن يجب عليه أن يعطف عليهم ويرأف بحالهم ـ وكذلك هم ـ كل ذلك من هول يوم القيامة ، لذلك يفر الإنسان من أخيه ، وأمه ، وأبيه ، وزوجته ، وبنيه ، لماذا يحدث هذا الفرار ؟ لأن كل إنسان مشغول بنفسه ، فهو يخاف أن يطلب منه أقرباؤه وأحبابه شيئاً ما ، وذلك كما في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴾ [المعارج: ١٠] .

وقد روىٰ الترمذي عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ ـ عن أهل يوم القيامة ـ « يحشرون حفاة عُراة غُرلاً »[1] فقالت امرأة : أينظر بعضنا ، أو يرىٰ بعضنا عورة بعض ؟ قال : « يا فلانة ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ »[2] .

يقول الله تعالىٰ في ذلك :

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس : ٣٤ـ٣٧] .

* * *

في سورة البروج

يذكر القرآن قصة ذلك الملك المشرك ، وهو آخر ملوك حمير واسمه ذو نواس ـ وقيل زُرعة بن تُبّان الحميري ـ وأنه حين بلغه أن قوماً من رعيته قد دانوا بالنصرانية ، فسار إليهم بجيش جرار وحفر لهم الخنادق ، وأمر بإشعال النيران فيها ، ثم ألقاهم بها .

وفي هذه القصة يأتي القرآن بعبارة ﴿ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾

---

(١) أي غير مختونين .

(٢) وفي رواية مسلم أن السائلة هي السيدة عائشة رضي الله عنها .

ليؤكد علىٰ حقيقةٍ ترددت كثيراً في القرآن ـ إنها قضية المساواة بينهما ، لذلك فالذين أُحرقوا بالنار المؤمنين والمؤمنات ، ولم يتركوهم أحراراً في دينهم ، وبعد ذلك لم يعلنوا توبتهم من صنعهم القبيح هذا ، فلهم عذاب في قاع جهنم من نفس العذاب الذي عذبوا فيه المؤمنين والمؤمنات ، مع الفرق الكبير بين الإحراق هنا والإحراق في نار جهنم ـ وفي ذلك يقول المولىٰ ـ سبحانه وتعالىٰ ـ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾ (١) [البروج : ١٠] .

* * *

في سورة المسد

تأتي سورة المسد لتؤكد حقيقة المساواة ـ بين الذكر والأنثىٰ ـ في الجزاء ، وتعرض علينا نموذجاً مصغراً من شرائح الناس ، إنها قصة أبي لهب وزوجه أم جميل ـ أخت أبي سفيان ـ فقد أخذا علىٰ عاتقهما مهمة الصدّ عن دعوة التوحيد ، وتوّجا ذلك بإيذاء المصطفىٰ صلوات الله عليه ، فهذا أبو لهب يردد بين الناس وهو يسير وراء رسول الله : لا تصدقوه ، إنه كذاب!! وتلك أم جميل تقول الشعر وهي تهجو رسول الله :

مذمماً عصينا وأمره أبينا

ودينه قلينا!!

---

(١) لتفصيل عن أحداث قصة أصحاب الأخدود يراجع :
تفسير ابن كثير : ٤/ ٤٩٢ ، وأحكام القرآن لابن العربي : ٤/ ١٩١٦ ، وتفسير الطبري : ٣٠/ ٨٥ ، وتفسير الكشاف للزمخشري : ٤/ ٢٠١ ، وتفسير الإمام القرطبي : ١٩/ ٢٧٥ ، وصحيح مسلم : ٤/ ٢٣٠١ .

هذا أبو لهب يرمي رسول الله ﷺ بالحجارة والشوك والعظام حتىٰ سال الدم من قدميه الشريفتين!

وتلك أم جميل تعيّرُ النبي ﷺ بالفقر ، وتسير في النميمة ، وتصدُّ الناس عن دعوة الإسلام!!

وهذا أبو لهب يعذب الضعفاء من المسلمين ، ويكيل للفقراء منهم العذاب الأليم!

وتلك أم جميل قد أخذت العهد علىٰ نفسها بأن تأتي كل يوم بحملٍ من الشوك والحطب والحسك لتضعه في طريق المسلمين!

فماذا كان الجزاء ـ للذكر والأنثىٰ ـ لأبي لهب وأم جميل ؟! هل هناك من فارق بينهما ؟ أبداً وحاشا لله وهل يظلم ربك أحداً[1] ؟!

سطر البيان الإلهي قصتهما في القرآن الخالد ، وستقرأ الأجيال إلىٰ يوم القيامة عملهما الخسيس هذا ، وقد نالا جزاءهما في الدنيا ، ويوم القيامة سيكون المآل إلىٰ جهنم ساءت مستقراً :

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴾ [المسد : ١ـ٥] .

* * *

وهكذا عشنا مع الآيات التي ورد فيها ذكر النساء في القرآن مع ملاحظة أنا لم نوردها كلها ، إنما عرضنا الأمور الأصلية ، وحذفنا الآيات المكررة ـ سواءً في نفس الموضوع أو قريباً منه ـ علماً أن الآيات التي أوردت ذكر النساء وما يتعلق بهن تزيد عن (١٩٠) مائة وتسعين

---

(١) للتوسع يراجع كتاب : المنهج القرآني في دحض افتراءات ومزاعم المشركين ، للمؤلف : ١٦٠ـ١٩٠ .

موضعاً ، وكل موضع فيه آية أو آيات ، وكل هذا يدلنا علىٰ مدىٰ اهتمام القرآن الموحىٰ من عند الله ، المنزل علىٰ قلب سيدنا رسول الله ﷺ بموضوع النساء وما يدور حولهن ، سائلين الله تعالىٰ أن يفتح علينا بسبب بركة كتابه وإكراماً لحبيبه المصطفىٰ والحمد لله رب العالمين .